القوة البحرية والتجارة فى البحر المتوسط فيما بين عامى ٥٠٠ و ١١٠٠ م

أرشيبالد لويس — مطبعة جامعة برنستون . عام ١٩٥١

Naval Power And Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100 Archibald R. Lewis. Princeton U. Press .

اتجه نفر من العلماء والساسة فى الولايات المتحدة الأميركية فى السنوات الأخيرة لدراسة شئون دول الشرق الأوسط دراسة مستفيضة . وقد أخرجت دور النشر فيها عدة مؤلفات قيمة كان لجامعة برنستون نصيب الأسد فيها .

يهدف المؤلف فى كتابه أثر القوات البحرية الإسلامية والمسيحية فى حياة هذا البحر فى خلال العصور الوسطى . وسقوط الحضارة الغربية مدة إلى أن استطاعت فى القرن الرابع عشر أن تنهض ثانية وتؤثر على الحضارة الإسلامية وتنتزع منها قوته الأولى .

والواقع أن هذا الكتاب خليط بين التاريخ الوسيط البحرى والاقتصادى والسياسى . عالج المؤلف فى الفصل الأول أحوال عالم البحر المتوسط كله فى حوالى عام ٥٠٠ م فى أثناء سيطرة القوط والغال ورومة وولاياتها وتكلم عن طرق الملاحة الرئيسية بين الشرق والغرب . ومصادر الثروة الاقتصادية والعلاقات التى ربطت دول الشرق بالغرب عن طريق هذا البحر القديم .

وعالج المؤلف فى الفصل الثانى أحوال بيزنطية المالية والاقتصادية والبحرية (٥١٨ — ٦٤١ م) وعلى الأخص « ما كانت عليه فى أيام جوستنيان وخلفائه عندما سيطرت على مناطق غنية هامة فى آسيا الصغرى وسوريا وشمال إفريقية .

وتناول المؤلف فى الفصل الثالث — الهجوم العربى بعد إرساء قواعد الدولة الاسلامية الأولى (٦٤١ — ٧٥٢ م) وتكلم عن الحركات البحرية الخاطفة ضد جزر البحر الشرقية القريبة من القواعد الإسلامية وكذلك ضد القسطنطينية معقل الدولة البيزنطية الكبرى . وقد عالج المؤلف تلك الحقبة بعناية واضحة .

ذلك لأن ما كتب منها بروح « أميركية » ما زال ضئيلا . . . هو نضال نشط مسلح بين المسلمين وبيزنطية استمر أعواماً طويلة فى مد وجزر بحراً وبراً وانتهى بظهور السفن الإسلامية على متن هذا البحر بكل جرأة — ثم انتهى باستسلام بعض الدول المسيحية الصغرى وانكماشها ضد منافسهم الخطير الجديد .

وكان أن اتجهت الفتوح الاسلامية نحو غرب البحر المتوسط فى شمال إفريقية . وأسبانيا والساحل الجنوبى لفرنسا . . . مما كان له أثر كبير فى ازدهار التجارة الاسلامية فى أوربا ونمو العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والمسيحيين.

وقد أوضح المؤلف الكثير من النظم الملاحية والضرائبية ومراكز الصناعات وأمهات المرافق الاقتصادية وتكلم عن المصادمات والحروب التى استمرت عنيفة بين الجانبين . ومع ذلك ظلت بيزنطية واقفة على قدميها وإن كانت قد بدأت تترنح تحت ضغط اللكمات الإسلامية .

وفى فصل تال عالج المؤلف أحوال البحر المتوسط تحت سيادة الإمبراطورية الإسلامية فى أوج عظمتها — فى أسبانيا المسلمة غرباً . وفى مصر الفاطمية شرقاً يؤلف الاثنان فكى كماشة يحيط طرفاها بكل ما تصادفه أمامهما .

هذا ما يوضحه مستر لويس فى فصول الكتاب المتتابعة عندما يرفع الستار عن عصر الانتقال . عندما بدأت تضعف سيطرة المسلمين على جزر الغرب والوسط وبداية تفكك الدولة الإسلامية الكبرى فى أسبانيا وضعف الحكام فى مصر والشام واستقلال كل حاكم وأمير بولايته . وكان هذا نذيراً بالخطر الذى دفع بعض دول أوربا بالتكتل لطرد المسلمين من المنطقة الغربية فى البحر وفعلا استعيد النفوذ فى جزر كورسيكا وصقلية ومالطة وجنوب إيطاليا ومعظم جزر البليار . بينما هددت الأساطيل الأوربية سواحل شمال إفريقية وأسبانيا نفسها . بل وأكثر من ذلك أن نجحت التعبئة الصليبية ووصلت أولى الحملات المسيحية إلى السواحل السورية واستقرت بعض إماراتهم هناك . ولولا نهوض رجال من طراز عماد الدين زنكى ونور الدين وشيركوه وأخيراً صلاح الدين لكان الخطر جسيما والعاقبة سيئة . ولكن استطاعت الدولة الأيوبية أن توقف الخطر الأوربى عند حده وردته عن بلادهم إلى أن استطاع سلاطين المماليك أن يقذفوا نهائياً قوات هذا الشر إلى البحر .

وكانت من عواقب هذا النضال الذى شاهده البحر المتوسط أن ذبلت اقتصاديات دول البحر الإسلامية وضعفت بحريتها وبدأ نفوذها يتقلص ويتضاءل وينكمش رويداً رويداً .

فى ذلك الحين كانت تنهض على سواحل البحر قوى صغيرة جديدة فى إيطاليا — مثل بيزة وجنوة . ظهر نشاطهما الاقتصادى على متون سفنهم فى شرق البحر المتوسط وغربيه . وقد حملت خيرات البلاد الإسلامية لتعود بها إليها مصنوعة — ثم استولى الغرب تدريجاً على القواعد والمرافئ الهامة على سواحل البحر والتى بدونها تتعرض التجارة البحرية للأخطار . وهكذا أفلتت سيادة البحر بالتدريج من أيدى المسلمين . ولكن مع ذلك كانت للشرق الإسلامى قوة يعمل الغرب حسابها .

وتفسير ذلك أنه ما كاد يرفع الستار عن القرن الثانى عشر حتى شاهدنا تكوين الإمارات الأندلسية مع إمارات شمال إفريقية وميلاد دولة المرابطين والمحدثين وفى ظلهما أعادت ما تبقى من أسبانيا المسلمة ومراكش والجزائر بناء أساطيلها . واسترجعت بعض القواعد التى لا غنى عنها واستمتعت معاً برخاء اقتصادى . ونوثقت عرى التحالف بين الشام ومصر تحت حكم الأيوبيين ثم المماليك وشبت منهما دولة عربية قاومت الصليبيين .

وكانت هذه النهضة — ثقافية أم اقتصادية — محلية الأثر أى أنه لم يكن لها فاعلية تذكر على الغرب .

وهكذا أتيح للبحر المتوسط أن يشهد مصرع القوة البحرية والمكانة الاقتصادية التى استحوذ عليها المسلمون ثم وانتقالها إلى أيدى الأوربيين حتى استطاع الترك الاستيلاء على الأستانة وطردهم سادتها منها وتشييدهم من جديد دولة قوية تمخر سفنها الحربية عباب البحر المتوسط وإن لم تتجاوز الساحل الجنوبى لإيطاليا .

ولم يكتب للعثمانيين تلك السيادة الطويلة الأمد . لأن أوربا كانت إلى سبيل استخدام النظم المستحدثة فى الإدارة والسياسة والاقتصاد والتعليم مما لم تكن تعرفه بعد آفاق التفكير العثمانى .

عبد الرحمن زكى